تقديم

لاسم الله «الرحمن» جُذورٌ في نصوص اللُّغات الساميّة، تُفيد في إحدى معانيها «الإله المُحبّ»، وقد جاء القرآن ليُعيد هذه الدّلالة الكامنة في التوراة والإنجيل وبالتناص معهما، حيث يُفرِّق بين اسم الله الرّحيم، بمعنى الرحمة التي تغفر الذنوب؛ وبين الرحمن بمعنى الرحمة الـمُحبّة للإنسان، وهي مقام يفوق مُجرَّد الشّفقة أو المغفرة. كما يتقاطع القُرآن بشكل أوثق مع الإنجيل من خلال تركيزه على هذا المعنى الكامن باعتباره أساس العلاقة بين الله والإنسان، حيث الرّحمة الإلهيّة مُتّجهةً لمحبَّة الإنسانيّة، ومن ثم تسمح بالتأسيس للاهوت الرحمة، كما هو الحال في لاهوت المحبة في نصوص العهد الجديد.

هل بإمكاننا اليوم أنْ نتحدَّث عن الرّحمة الإلهيّة باعتبارها أساس علاقة الله بالإنسان؟ وداخل أيِّ أُفقٍ يمُكننا ذلك؟

على الرغم منْ أنَّ للرحمة معنى مُتجذرٌ في النّص القرآني، وأصيل في تراث الأديان الإبراهيمية، إلا أنَّ فهم السابقين من أهل الكلام لم يُراوح حصر علاقة الله بالإنسان أنْ تكون قائمةً على العدل (المعتزلة) أو العناية (الأشاعرة)، دون أن يكون اهتمامهم بالإنسان الذي جاء الدين لخدمته. فما كانتْ قضيّة العدل بالتي تُحفِّزُهم على مُحاولة تنزيله إلى مملكة الأرض، فبقي مُعلقًا في جدالات لا تنتهي؛ وما دفعتْ قضيّة العناية الإلهيّة إلى عدِّ الرحمة أساس علاقة الله بالإنسان وإقامة قيم أخلاقية إنسانية مبنية على الرحمة.

فإنْ كان الأمر كذلك، أي عدم إيلاء الأولية في التراث الكلامي لموضوع الرحمة الإلهية، فهل يمُكن بأي حال التّأسيس فلسفيًّا للاهوت الرّحمة؟ أيْ النّظر للموضوع في أفق الحداثة الفلسفية ومقولاتها؟ وتحديدًا مقولات العقل والذات والحُرية.

قد يبدو البحث في مثل هذه القضيّة محفوفًا بالـمُفارقات. فمن جهة، قد يُنظر للاهوت الرحمة أنَّه تأسيس لإيمان بغيبيات، في الوقت الذي حدَّدتْ فيه الفلسفة الحديثة أنَّ الدين لا يمُكن التفكير فيه إلّا في حدود العقل المُجرَّد؛ كما أنَّ تأسيس مقولة الذات باعتبارها مصدر المعنى الوحيد في أفق الحقيقة، يُقوِّض أي إمكانيّة لترميم البناء الرمزي الذي جَهدَ المُتكلِّمون على تشْييده؛ وأخيرًا، أليس من المُغالطة طرح موضوع لاهوت الرحمة في أفق الحُرية، في الوقت الذي امتلأتْ به كتب علماء الكلام بنقاشات عن الإرادة والحُرية، انتهى فيها المُعتزلة إلى الانتصار لإرادة الإنسان وحُريته على حساب حُرية الله، وانتهى النقاش عند الأشاعرة إلى الانتصار لإرادة الله وحريته على حساب حُرية الإنسان، وكأن النظر اللاهوتي في موضوع الحُرية ليس له من مخرج إلا إعلان أحد الطرفين مُنتصرًا والآخر مغلوبًا!

تسمح الفلسفة الحديثة، خاصة الفلسفة الترنسندنتالية، بتخطي هذه المُفارقات وفتح آفاق أرحب، ليس باعتبارها طوق نجاة لعودة للإيمان إلى زمننا الراهن، بل لكونها تُوجِدُ أرضيّةً مُشتركةً بين الفلسفة واللاهوت. ولعلَّ هذه الرّحابة تتأسّس على أنَّ ما بعد حُدود العقل هو موضوع أخلاقي مُمكن، وهو كذلك موضوع بحث لاهوتي، وذلك عندما يصير الإنسان هو مركز الاهتمام، من مُنطلق أنَّ الدين جاء لخدمة الإنسان.

إنَّ الاتجاه الذي يجعل من وظيفة البحث اللاهوتي الدِّفاع عن العقائد، هو اتجاه سيؤول نهاية المطاف إلى رؤية أيدولوجية للدين. في حين، يُمكن التأسيس للاهوت جديد يشتغل بالتفكر العقلاني بشتى أمور الدين، وذلك ليس بمعنى محاولة إثبات حقيقة هذه الأمور الدينية مثل وجود الله أو الوحي أو الرسالة، أو غيرها من الغيبيَّات، بل مُحاولة إثبات عقلانية تبنِّي مثل هذه الحقائق الدينية والتأسيس الأخلاقيّ عليها. وهذا يعني أنَّنا لا نستطيع الاستغناء عن البحث الفلسفي عند الحديث عن الغيبيات التي لا يمكن إثباتها بالتجربة، ومن ثم يُصبح الحديث عن التجلي الإلهي حديثًا عقلانيًّا وفق الفلسفة الترنسندنتالية، على اعتبار أنَّ لدى الإنسان القدرة على مفارقة كل ما هو نهائي ومساءلة كل شيء حوله بما في ذلك وجوده؛ وأنّ وجود أفق لامُتناه هو شرط إمكانية سؤال الإنسان وتعاليه المستمر عن كل جواب؛ وأنَّ هذه القدرة التي يتمتع بها الإنسان، هي هبة إلهية.

أليس من هذا المُنطلق تُصبح قضية التجلي الإلهي، وعلاقة الله بالإنسان جديرة بالبحث وفق لاهوت جديد؟

نسعى من خلال هذا العدد إلى عرض مفهوم الرحمة للنقاش الكلامي الإسلامي من جديد، ليس من مُنطلق البحث عن تأسيس اعتزالي أو أشعري أو ماتريدي لمفهوم الرحمة، وإنما البحث في تاريخ الأفكار عن دواعي غياب الرحمة في البنية الذهنية للكلام الإسلامي، والبحث عن إمكانات أخرى لِتأسيس المقولات اللاهوتية بما في ذلك «لاهوت الرحمة» على «حدود مُجرّد العقل».

تأمل **مجلة مونستر للدراسات الإسلامية والفلسفية** أنْ يكون هذا العدد فُرصةً لفتح نقاش بين الباحثين المُهتمين لتعميق الدراسة في موضوع الرحمة من منظورات لاهوتية وفلسفية مُختلفة.

هيئة تحرير مجلة مونستر
للدراسات الإسلاميّة والفلسفيّة